جدل المفاهيم في موضوعة التهميش والمهمشين

أ.د جمال مجناح

اشتغلت الدراسات الاجتماعية والاقتصادية على مصطلح الهامش ومشتقاته التهميش والمهمشون منذ سبعينيات القرن الماضي ، لأن موضوعاته كانت من اختصاص تلك المعرفة أو لنقل كانت من بين بنياتها المعرفية ، نظرا لارتباطها بالمجتمعات المدينية وعلاقتها بالضواحي وكذا بالاقتصاديات الموجهة إلى طبقات اجتماعية بعينها، دون أن تغيب عنهاالأبعاد السياسية و النفسية والأدبية ، ممّا أنتج مجموعة مصطلحات متجاورة ومتعالقة تكمّل المفهوم المصدر وتضيف إليه جزئيات لا عنى عنها .

وبداية فإن مفهوم الهامش والتهميش في المعرفة والاصطلاح يتوزع على شبكة موضوعاتية متصلة ومنفصلة في الآن نفسه، ففي جانبها المعرفي ، مثلما ذكرنا، تشتغل موضوعة الهامش على مجموعة تخصصات كالفلسفة والاجتماع والسياسة والاقتصاد وفي الشق المتصل فإن المفهوم يتوحد ضمن دائرة تتصف بالجدل والنسبية وعدم الثبات فوجود الهامش يفترض مقابلا هو المركز أو المهيمن ومهما كان المنظور فالهامش يتميز برتبة دنيا عن المركز أو هو أقلية أو هو مبعد أو هو مقصى أو هو معزول...، وهكذا يتجلى المفهوم في مجموعة مصطلحات متجاورة ومتعالقة ،فوجود الواحد يستدعي الآخر بل يضيف إليه ويوضحه تارة أخرى.

ورغم حداثة الاهتمام بموضوع الهامش في الفروع المعرفية المختلفة ،والذي يرجعه البعض إلى سبعينيات القرن الماضي، فإنه في جذوره قد يمتد إلى قرون خلت ترتبط بوجود المركز المهيمن ، ومن هذا المنظور فإن مفهوم الهامش أو التهميش قد يرتكز على مجموعة تقسيمات عامة، نراها تتمثل في الهامش الاجتماعي والهامش السياسي والهامش الاقتصادي والهامش الثقافي ، وهي كلها تتعالق من حيث كونها علامات على وجود الهامش في مقابل المركز وبالتالي فإن المفهوم قد يتحول إلى قيمة إيجابية باعتباره موقفا مخالفا أو مقاوما أو نديا للمركز.

ورغم قلة الاهتمام بموضوعات الهامش إلا بعد السبيعينات من القرن الماضي، فإنه ضمِن حيزا هاما في الدراسات الاقتصادية أولا ثم شغل مكانه في الدراسات الأدبية، وهكذا يمكن أن نتحدث على أهمية الهامش في تلك الدراسات، غير أن العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع تحديدا) فضّلت ولفترة طويلة توظيف مصطلحات أخرى مثل تلك المتعلقة بالفقر، أو الأقليات ،أو التمييز ، أو الاقصاء ..وهي كلها مصطلحات تغطي الظواهر الاجتماعية والاقتصادية" [01]

ومن وجهة نظر أخرى يمكننا ربط ظاهرة الهامش في بعض مصطلحاتها الشائعة بعلم النفس والجغرافيا والسياسة، ومنها ما يرد في علم النفس مثل: الانعزالية، الوحدة، الاحتياجات الخاصة، العاهة ...، أو ما يرد في الجغرافيا والعمران مثل الابتعاد ، ضواحي المدن أو ما تقترحه بعض الدراسات مثل فضاءات الهامش ، وأيضا يمكننا أن نخصص مساحات أكبر لما له علاقة بالهامش وقضاياه متمثّلا في العلاقات التي تحكم السياسات الدولية الاقتصادية والسياسية ، وهو ما يجعلنا ننتبه إلى مصطلحات ثنائية جدلية أحيانا ومتآلفة أخرى، ومنها العالم المتقدم والعالم المتخلف ، الشرق والغرب ، الدول المتقدمة والدول النامية ، التبعية الثقافية والتبعية الاجتماعية ، الهيمنة والتسلط

وبحسب رأي ميشال فوكو،"فإن ما يمكن ملاحظته على الهوامش فإنها تتحدد بناء على علاقتها بالمركز فالخارج يتحدد بناء على داخل ما ذلك لأن الهوامش تظهر في مفاهيم الداخل ومن ثم فالفقراء والمقصيون اجتماعيا يتحدد موقعهم في المجتمع الذي يصبغ عليهم هذه الصفة أو تلك، ويتموقعون بحسب علاقة بالمركز توحي إلى مجموعة معايير خاصة بها مثل الاهتمام، الاستهلاك وغيرها من المعاير "[02].

تقوم تصورات مفهوم الهامش تقوم ، في كل عناصرها على علاقات تحكمها ضابط اجتماعية نفسية إديولوجية تتأسس على الدونية وعقدة التفوق، الاقصاء والتمييز الصدارة والتبعية ويمكن ان تتمدد مثل هذه التصنيفات إلى عناصر لا متناهية إذا احتكمنا إلى هذه المعايير. وعلى سبيل المثال فالهامشية بين المنحرف و المتشرد من الناحية القانونية، و بين المجنون و المدمن من الناحية الصحية، و بين الأمي و المهاجر من الناحية الثقافية، و بين الفقير جدا و العاطل من الناحية الاجتماعية و الاقتصادية"[03].

كما أن أي تحليل لظاهرة الهامش أو التهميش يتطلب قراءة مزدوجة كما يتطلب تحليلا ثنائيا، لأن طبيعة موضوع الهامش في حدّ ذاته ثنائي المنظور فلا يمكن أن نتحدث عنه بمعزل عن سببه أي عن المركز.

ولذلك يمكننا تعميم هذا المعيار على موضوعة الهامش في الأدب مادام مفهوم الهامش يتحدد بمرجعية المركز من حيث الخروج عن السائد أو عن المألوف مثلما يخض لمعيار اجتماعي اقتصادي أي أن هناك مؤسسة تسلط هذا المعيار أو ذاك على موضوع الهامش في أدب ما ، ونقصد به الموضوع الذي قد يصنف خارج المؤسسة الثقافية أو دون رعايتها أو حتى موافقتها أو خارج معاييرها وقيمها الأخلاقية والسياسية والاجتماعية ، مما يذهب بنا إلى اعتبار أدب االمعارضة السياسية ، أو أدب الرفض أو أدب الذي يعالج قضايا الأقليات والفقر والتسول والتشرد ...موضوعا من موضوعات الهامش أو من أدب الهامش ومن هذا المنظور فكل أدب " ينتج خارج المؤسسة سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو أكاديمية ، الذي يقع بعيدا عن الرعاية و الاحتضان بل و يجري العمل على نبذه و استبعاده من دائرة الضوء و قد تسلط عليه الرقابة"[04]

وما يطلق على أدب الهامش في التصور السابق يمكن إطلاقه على مستويات أخرى من المعارف الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ويدخل في التعميم من منظور الرقابة والإقصاء الكتابة التي تصطدم مع قور المركز السياسي والاجتماعي فيدخل في دائرته ما يمكن أن نطلق عليه المسكوت عنه أو المحضور أو الكتابات الإباحية قديما وحديثا أو ما يعرف اليوم في المدن بالكتابات الجدارية اتي تعبر عن أراء أصحابها السياسية أو الاجتماعية وحتى عن مكبوتاتهم وعقده. وبطبيعة الحال فإن منظور هذا التصور يتأسس من خروج هذا الأدب(الهامش) عن المألوف وعدم انضباطه وخضوعه للمعايير التي وضعها المركز أو المؤسسة الراعية " ولما كانت الاجناس الأدبية هي نفسها صنيعة المؤسسة الرسمية فإنها تعتبر هذا الأدب كائنا منبوذا ومهمشا لعدم انضباطه لتوجيهاتها واختراقه لبنياتها الموجّهة من طرف التقليد الأدبي المتعارف عليه..تستوي في ذلك كل الأنماط المسماة "تا تحت الأدب" من شعر الصعاليك الجاهلي والشعر المناوئ للدعوة الاسلامية وأدب الخوارج الأموي والأدب ذي المزعة الشعوبية والمقامات الشعبية والكتابات الشبقية والصوفية"[05]

لا ننسى أن نذكر بأن هذا التصنيف يقوم على الخروج عن المألوف وعن الضوابط الأخلاقية والاجتماعية فشعر الخوارج أو شعر الفرق على سبيل المثال هو شعر للمعارضة السياسية بالدرجة الأولى والموضوع الهامشي فيه يرتبط بمقاومته للنظام القائم ، وهو ما يؤكد نسبية

المفهوم واعتباره فضفاضا إلى حد بعيد ، بينما إذا نظرنا إلى قول قطري ابن الفجاءة على سبيل المثال :

وما للمرءِ خيْرٌ في حياةٍ إذا ماعُــدّ من سقَطِ المَتَاعِ

أو قول طرفة بن العبد :

رر حتى إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأُفردتُ إفراد البعير المعبّدِ

تتطابق موضوعة الهامش في البيتين مع معيار الإقصاء والانعزالية أو العزلة الاجتماعية، وهو تصنيف يختلف في تحديده لموضوع الهامش من حيث ارتباطه بالعلاقات الاجتماعية ومن حيث العلاقة التي تربط المبدع بالسياق الثقافي للقول وبنسق منظومة القيم التي عاش في فضاءاتها من حيث هي انتماؤه الأول.

بينما قد يكون مستوى الحياة (الفقر والتسول) معيار آخر لتعريف الهامش أو أدب الهامش أو موضوع الهامش أو أيا كان تنويع الدائرة المعرفية ولذلك فأدب التسول وشكوى الحاجة والفاقة قد يصنفه في الهامش باعتبار موضوع التسول والتشرد من اهم أدبيات الهامش دون اشتراط تصنيف مبدعه بذلك إلا إذا كان فعلا يمارس ذلك وعلى سبيل المثال قول الأحنف العكبري :

إذا مرضتُ فعوادي ميازقةٌ أولاد ساسان أهل الضر والعجف (الميازقة: المتسولن)
إني وطائفة منهم على خلق من كل ممتحن ينمي إلى سلف
هم الصعاليك إلا انهم عدلوا عن السلاح إلى الأخبار والنتف
مشـردون حيـارى في معـايشهم ليس الفقير من الدنيا بمنتصف
الناس في الحرّ في خيش وفي نعم ونحن في الحر في القيعان كالهدف
يسقون في الخيش بالموزون إن عطشوا ماء الثلوج وماء المُزن في لطف
ونحن نشرب ماء السجلِ في عطش شرب الكلاب بلا كوز لمغترف
فإن سكنا بيوتا فهي مقفرةً أو في المساجد أو في غامض الغرف [06]

فموضوعة الهامش ترتبط بالمعاناة النفسية والاجتماعية للمتشردين والمتسويل وذوي العاهات منهم، وبالتالي يتحول المعيار في تحديد الهامش أو التهميش إلى الموضوع الاجتماعي المرتبط بالفقر والتشرد والتسول.ففكرة الهامش لا تتحدد بمفهوم جامع يمكن ضبطه وتأطيره ، لأنها تحمل في ذاتها ديناميكية ترتبط بعلاقاتها ذات الأوجه المختلفة وبنسبيتها المندمجة ضمن رؤى وتصورات تتنوع بتنوع أهداف أصحابها. " لذلك انتشرت فكرة التهميش منطلقة من ديناميكة التخلي